

«الإسلام الباطني في السودان: حركة الزبالعة»

محمد خليفة صديق – السودان

هذا الكتاب: الإسلام الباطني في السودان: حركة الزبالعة، هو في الأصل رسالة ماجستير في التاريخ نوقشت في كلية الآداب بجامعة الخرطوم، وتقدمت بها الباحثة والكاتبة السودانية محاسن زين العابدين عبد الله، وهي مستشارة في التخطيط التنموي، ولها عدد من المؤلفات مثل كتاب المجتمع المدني بين التأصيل والابتسار.

يقع الكتاب في ٢٤٦ صفحة من القطع الكبير، ويتكون من ستة فصول، بجانب أربعة ملاحق، وقائمة مراجع عربية وإنجليزية، يتناول الفصل الأول: الملامح الأساسية للبنية الاقتصادية الاجتماعية للسودان بأقاليمه المختلفة، بجانب الديانات التي انتشرت في السودان تاريخيًا مثل الديانات الوثنية، واليهودية، والمسيحية.

بينما يناقش الفصل الثاني الهجرة العربية وانتشار الإسلام في السودان، وخصّصت المؤلفة الفصل الثالث لمظاهر الثقافة الإسلامية في سلطنة سنار، وهي الدولة الإسلامية التي نشأت في السودان عام ١٥٠٤م.

وجاء الفصل الرابع تحت عنوان «الحركات الباطنية في الإسلام»، ناقشت فيه المؤلفة مدلول كلمة الباطنية، والصلة بين الفكر الباطني والتشيع والتصوف، والفرق والفلسفة الباطنية. أما الفصل الخامس فكان عن الإسلام الباطني في السودان، بينما خصصت المؤلفة الفصل السادس كاملاً لحركة الزبالعة، بدأت من سبب التسمية، ثم تابعت الطريقة ونشأتها وتطورها والمناطق والقبائل التي انتشرت فيها، مع بيان معتقدات وممارسات الزبالعة من أذكارهم، وطريقة الانضمام للطريقة، وآلية اختيار الشيوخ، والعلاقة بين الرجل والمرأة عند الزبالعة وعاداتهم، وختمت الكتاب بنهاية الطريقة.

والكتاب عبارة عن دراسة تاريخية تناولت فيه حركة «الزبالعة»، وهي جماعة صوفية منحرفة نشأت في السودان في أوائل القرن السابع عشر، ولم يبقَ منها اليوم إلا اعتزاز الأحفاد بتاريخ الأجداد!

انتشرت «**الزبالعة**» في المنطقة الممتدة من جنوب الروصيرص حتى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض بوسط السودان، ولم تستند إلى تكوين قبلي، فكان أعضاؤها من مختلف القبائل، إلا أنها ارتكزت أساسًا على فرع البليلاب من قبيلة كنانة الكوانيل والرواشدة في شرق مدني بوسط السودان على ضفة النيل الأزرق.

عند مناقشة المؤلفة للحركات الباطنية في الإسلام في الفصل الرابع من الكتاب حاولت وضع حركة «الزبالعة» في سياق مقارن مع حركات باطنية وتاريخية سابقة

في التاريخ الإسلامي كالإسماعيلية والقرامطة والبابكية والملامتية، وناقشت مفهوم التأويل الباطني؛ حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن للنصوص الشرعية ظاهرًا **(القشر)** وباطنًا **(اللب)**، وبينت كيف تقاطعت هذه المفاهيم الباطنية مع الفكر الشيعي والتصوف الباطني في إعلاء شأن «**الإمام**» أو «**الشيخ/الولي**» واحتكار المعرفة الروحية وما يطلق عليه **(الفيض الإلهي)**.

الإسلام الباطني في السودان كان هو عنوان الفصل الخامس من الكتاب، وفيه سعت المؤلفة لتطبيق المفاهيم النظرية للباطنية والتصوف على الواقع الاجتماعي والتاريخي في السودان خاصة خلال عهد سلطنة سنار لتحديد طبيعة الإسلام المحلي في السودان، حيث ربطت بين نشأة ما تطلق عليه (الإسلام الشعبي) متأثرًا بالتصوف والحركات الباطنية، كما تكيف مع الإرث الثقافي النوبي والأفريقي القديم في السودان، وممتصًا للغيبيات والمعتقدات الشعبية دون إحداث هزة في المجتمع.

وعرضت المؤلفة للصراع التاريخي في السودان بين فقهاء الشريعة ومشايخ الصوفية والباطنية، وأوضحت أن الخط الباطني للصوفية انتصر في بعض المراحل التاريخية في السودان، حيث أصبح الولاء المطلق للشيخ، والإيمان بكراماته، والتأمل الباطني يُعدّ عند عامة الناس أعلى مرتبة من مجرد الالتزام بالفرائض الظاهرة، كما تناولت المؤلفة نماذج من الشخصيات الصوفية والأنماط التي ظهرت في التراث السوداني مثل الملامتية كإسماعيل صاحب الربابة، وحمد النحلان، وسليمان الزغرات؛ حيث صُنفت سلوكياتهم في إطار الجذب، والشطح الصوفي.

الزبالعة عند المؤرخين

في دراستها التطبيقية والميدانية في الكتاب؛ بعد معالجة التنظير التاريخي والفلسفي للحركات الباطنية والصوفية تنزل إلى أرض الواقع الميداني والتاريخ الشفاهي لدراسة ظاهرة الزبالعة، وتبدأ بإشكالية التسمية ودلالاتها في الوعي الجمعي والمدونات التاريخية، حيث تتبّعت جذور الكلمة ومشتقاتها؛ وأشارت للتعريفات من المصادر التقليدية مثل «**قاموس اللهجة العامية في السودان للدكتور عون الشريف قاسم**»، حيث يعرف «**الزبلعة**» بأنها توبة واستغفار ظاهري يعقبه ترك الطريقة وسلوك غير قويم، ويُنسب أتباعها إلى «**أبي جريد**». وفي «**طبقات ود ضيف الله**»، وُصفت الجماعة بأنهم «**كهنة وسحرة**» عُرفوا بعدم الاستقامة، والشعوذة، وإباحة المحرمات، وفعل المناكير، والخروج عن طاعة الحكام. وقال المؤرخ نعوم شقير إنهم فرقة خارجة عن الإسلام، لا تعرف من نبيّها سوى «أبي جريد»، وتردد في أذكارها شعارات تناقض ختام النبوة، فضلاً عن اتهامهم بإباحة الفواحش في ليالي الذكر المظلمة وتناول المسكرات.

تُبيّن المؤلفة أن نشأة حركة «**أبي جريد**» وجذورها الاجتماعية والقبليّة بالاستناد إلى وثائق المستشرقين (مثل هيليلسون) والروايات الشفاهية التي جَمعتْها من أحفاد الجماعة في الشاطئ الشرقي للنيل الأزرق بوسط السودان في مناطق (حنتوب، أبو حراز، خدر، الجزائر، وسنجة) كانت في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، فترة أوج سلطنة سنار على يد الشيخ آدم أبو جريد بمشاركة رموز من أشراف العركيين مثل محمود الغريب وآدم بن عبد الله. ويدين الانتشار الواسع للطريقة في ذلك الوقت بالفضل إلى النشاط الاقتصادي المتجوّل لأعضائها المعتمد على الرعي والترحال، وهو ما أتاح لأعضائها فرصة المرور بالعديد من المناطق التي نجحوا في استقطاب أهلها لطريقتهم المثيرة للجدل.

ثم تحدثت المؤلفة عن البيئة الحاضنة للطريقة مثل القبائل البدوية حيث انتشرت في بداياتها وسط قبائل البادية المتنقلة، وتحديدًا فرع «البليلاب» من قبيلة كنانة، إضافة إلى الرافضين والمنصوراب والضبانية والبطاحين، وأوضحت أن الجماعة لم تكن تمثل تنظيمًا مؤسسيًا صارمًا، بل رابطة روحية واجتماعية تعتمد على الولاء للشيخ، والميثاق والأخوة بين المريدين، وتجاوز الاعتبارات القبلية لصالح الولاء للطريقة.

الزبالعة وشيوخهم

ناقشت المؤلفة ما قيل عن ادعاء النبوة لشيخهم أبو جريد من خلال تتبع نصوص القصائد والمديح الشعبي التي تحفظها جماعة الزبالعة، وأوضحت أن نصوصهم صريحة في المديح الصوفي المبالغ فيه لتعظيم الشيخ في المخيال الشعبي، ورفعه لدرجة النبوة.

وقالت إن من أكثر الأمور التي تُؤخذ على «الزبالعة» إيمانهم المُطلق بشيوخهم، وتمجيدهم لهم، وهو أمر اتسق مع المكانة القديمة التي اكتسبها شيخ القبيلة وسط المجموعات البدائية الوثنية، والاعتقاد أنه يمتلك القُدرة على الإتيان بالخوارق، ولهذا اقتصرت عبادات الطريقة وأشعارها على التمسّح في الشيوخ واللجوء إليهم، ولم تتطرق إلى ذِكر الأنبياء والرسل إلا نادرًا.

تؤكد المؤلفة أن الزبالعة ارتبط إسلامهم بمظهرٍ دخيلٍ هو الانقياد التام لشيوخهم، والإيمان بقدراتهم على الإتيان بالكرامات وخوارق العادات. ولهذا ترى المؤلفة **أن الطريقة لم تنتشر إلا بين أكثر المجموعات تخلفًا، التي تتكون في مجملها من العرب الرُحل المتمثلين في قبائل كنانة والشكرية والميرفاب**، برغم أن الطريقة تقول إنها تؤمن بوحدانية الإله وبالأنبياء وبالرسل أجمعين وبالقضاء والقدر، وإن أفرادها كانوا يؤدون الفرائض كلّها من صلاة وصيام وزكاة وحج.

الزبالعة والإباحية

اتُّهم «**الزبالعة**» بالإباحة والمجون؛ إذ كانوا في حلقات الذكر يواقعون النساء دون حدود، ويواقعون الأم والأخت وبنت الولد، وتنقل المؤلفة وصف المؤرخ محمد عبد الرحيم ليالي الذكر عند الزبالعة، بأنها تُعقد في جنح الظلام، بعد إنارة المكان في ليالٍ معلومةٍ من كل أسبوع ويحضرها الأتباع كلهم، الرجال والنساء، وكانوا يلحّنون الأناشيد الخاصة بهم، ويتواجدون على تلك النغمات، وبينما هم كذلك إذ يطفئ الرئيس المصباح، وهناك يأخذ كل رجل التي تليه من النساء، ويُباح له وطؤها، وعندئذٍ تُختتم الاحتفالات.

وحول الإباحية الجنسية في الذكر عند الزبالعة، يقول المستشرق هيليلسون إنه من الصعب نفيها أو إثباتها، فبعضهم يقول إن ذلك كان يحدث أسبوعيًا بعد الذكر مباشرةً، بينما يقول آخرون إنه كان يحدث مرةً في العام بعد اجتماعهم السنوي في شهر صفر، ونقلت المؤلفة اعتراف سكان بلدة «خدر»، حاضرة الزبالعة، لهيليلسون بأن عادة وطء النساء في الذّكر ربما كانت موجودةً قديمًا، وتلفت زين العابدين إلى حقيقة مهمة لا بد من تحرّيها بالنظر إلى مسألة ليالي الإباحة، وهي انفراد جماعة الزبالعة بتعامل مختلف مع النساء، إذ كان للنساء حق الانضمام إلى الطريقة ولهنّ ما للرجال من واجبات وحقوق، وتحضر نساء الطريقة إلى الذِكر، وهنّ في أجمل الثياب المعطرة، وتدهن امرأة مختارة الشيخ وتدلّك جسده بالعطور وتبقى في خدمته، وتعدّ ذلك مصدر فخر لها.

أكدت المؤلفة اتهام الزبالعة بإطفاء الأنوار في ليالي الذكر وإباحة الفروج ومفاسد الاختلاط، وقالت إنه ربما يكون من تأثير طبيعة حياة البادية في هذه المناطق على الزبالعة حيث تتمتع المرأة في تلك القبائل الرعوية بمساحة عالية من الحرية، والمشاركة في المجتمعات العامة، وحضور مجالس الذِكر بكامل زينتها وعطرها، كما يبدو ظاهرًا تأثير النمط الباطني للتصوف في عقد مجالس الذكر، وإتاحة الزبالعة تحرر المرأة في الذّكر، وفي مخالطة الرجال في الحياة العامة.

غرائب الزبالعة

وصفت المؤلفة طريقة الزبالعة بأنها كانت طريقةً سريةً، ونقلت عن المؤرخ محمد عبد الرحيم قوله: «كانوا كالماسونية في كتمان أمرهم»، وذكرت أن خليفة آدم سنّ لهم تحيةً مخصوصةً، وأن الرجل منهم يحمل سبحةً ملونةً شعارًا سريًا يتعارفون من خلاله.

تؤكد المؤلفة أن «الزبالعة» تفرّدت عن غيرها من الفرق الدينية الإسلامية بأنها لا تعتقد بقُدسية القرآن، حيث تقول إن علاقةً غريبةً جمعت الزبالعة بالقرآن، فهم لا يعرفونه ولا يعتقدون فيه، بل ويمنحونه اسمًا مختلفًا هو «أبو رقيط»، دون أن يعرف أحدٌ السبب وراء هذه التسمية.

من أبرز غرائب الزبالعة كما تنقل المؤلفة الانضمام إلى الجماعة، وهو طقس شديد الخرافة؛ إذ يُمنح طالب الطريقة اسمًا محددًا يتلاشى مع احمرار غروب الشمس، حيث يخلع ثيابه ويجلس في بيت للنمل، ثم يظل يردد الاسم إلى أن يأتيه كلب أسود، فإذا ثبت أمام الكلب الذي يقوم بنكاحه فإنه يكتسب العقيدة ويتيسر رزقه ومعاشه، والكلب هو شيخ الطريقة نفسه، الذي يتلقون منه الأوامر والعون.

الزبالعة اليوم

من دراستها الميدانية لمناطق انتشار الزبالعة تشير المؤلفة إلى أن طقوسهم المثيرة للجدل أصبحت شيئًا من الماضي، ورغم أن ذُريتهم لا تزال تعيش في السودان إلى الآن، إلا أنهم انقطعوا تمامًا عن تراث أجدادهم المُشين؛ ففي العام ١٩٧٥م، زارهم الطيب محمد الطيب الباحث في التراث السوداني فلم يلمس شيئًا مشينًا في تصرفاتهم، لكنهم ظلّوا على احتفاظهم بتبجيلهم المُفرط لشيوخهم، فعندما أُتي على ذِكر كرين بن عبد الله بينهم اكتشف أن الزبالعة يُطلقون عليه اسم «**الخليفة الثالث**» بعد أبي بكر وآدم، وأن ذريته تُعرف حتى اليوم بأنهم «**خلفاء الطريقة**».

وتشير المؤلفة إلى أنها التقَت شيوخ الطريقة الحاليين، الذين أعربوا لها عن فخرهم بتاريخ أجدادهم، لكنها في المقابل أكدت أن ما تبقى من آثار قديمة للطريقة على أفرادها الحاليين فقط الرابطة الروحية القوية والتجمعات المستمرة وإنشاد القصائد التي تُمجِّد المجموعة وقادتها.